يريد الهرب لم يفكر فى وجهة معينة ، فالذى يُهمه أنْ يخرج من هذه البلدة ، وينجو بنفسه .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ[1] قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

عرض القرآن الكريم هذه القصة فى إيجاز بليغ ، ومع إيجازها فقد أوضحتْ مهمة المرأة فى مجتمعها ، ودور الرجل بالنسبة للمرأة ، والضرورة التى تُلجىء المرأة للخروج للعمل .

معنى ﴿ وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] يعنى : جاء عند الماء ، ولا يقتضى الورود أن يكون شَرِب منه . والورود بهذا المعنى حلَّ لنا الإشكال فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. ﴿٧١﴾ ﴾ [مريم] فليس المعنى دخول النار ، ومباشرة حَرِّها ، إنما ذاهبون إليها ، ونراها جميعنا - إذن : وردْنا العَيْن . يعنى : جئنا عندها ورأيناها ، لكن الشرب منها ، شىء آخر .

﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] أى : على الماء ﴿ أُمَّةً .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] جماعة ﴿ يَسْقُونَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] أى : مواشيهم ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] يعنى : بعيداً عن الماء ﴿ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] أى : تكفّان الغنم وتمنعانها من الشُّرْب لكثرة

---

(١) أى : تسوقان أغنامهما ، أو تدفعان الغنم عن التفرق أو عن الزحام . [القاموس القويم ٢٤٧/١] .

الزحام على الماء ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا..(٢٣)﴾[القصص] أى : ما شأنكما ؟

وفى الاستفهام هنا معنى التعجُّب يعنى : لماذا تمنعان الغنم أنْ تشربَ ، وما أتيتُما إلا للسُّقْيا ؟

﴿قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ [القصص]

وقولهما ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ .. (٢٣)﴾ [القصص] يعنى : ينصرفوا عن الماء ، فصدر مقابل ورد ، فالآتى للماء : وارد ، والمنصرف عنه : صادر . نقول : صدر يَصْدُر أى : بذاته ، وأصدر يُصْدِر أى : غيره .

فالمعنى : لا نَسْقى حتى يسقى الناس وينصرفوا . و ﴿الرِّعَاءُ .. (٢٣)﴾ [القصص] جمع رَاعٍ . ثم يذكران العلَّة فى خروجهما لسقْى الغنم ومباشرة عمل الرجال ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ [القصص]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾

معنا ـ إذن ـ فى هذه القصة أحكام ثلاثة ﴿لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ..(٢٣)﴾ [القصص] أعطَتْ حكماً و ﴿أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ [القصص] أعطتْ حُكْماً و ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا .. (٢٤)﴾ [القصص] أعطت حكماً ثالثاً .

وهذه الأحكام الثلاثة تُنظم للمجتمع المسلم مسألة عمل المرأة ، وما يجب علينا حينما تُضطر المرأة للعمل ، فمن **الحكم الأول** نعلم أن سَقْى الأنعام من عمل الرجال ، ومن **الحكم الثانى** نعلم أن المرأة لا تخرج للعمل إلا للضرورة ، ولا تؤدى مهمة الرجل إلا إذا عجز الرجل عن أداء هذه المهمة ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ [القصص]

أما **الحكم الثالث** فيعلم المجتمع المسلم أو حتى الإنساني إذا رأى المرأة قد خرجت للعمل فلابد أنه ليس لها رجل يقوم بهذه المهمة ، فعليه أن يساعدها وأنْ يُيسِّر لها مهمتها .

وأذكر أنني حينما سافرت إلى السعودية سنة ١٩٥٠ ركبتُ مع أحد الزملاء سيارته ، وفي الطريق رأيته نزل من سيارته ، وذهب إلى أحد المنازل ، وكان أمامه طاولة من الخشب مُغطَّاة بقطعة من القماش ، فأخذها ووضعها في السيارة ، ثم سرْنا فسألتُه عما يفعل ، فقال : من عاداتنا إذا رأيتُ مثل هذه الطاولة على باب البيت ، فهي تعني أن صاحب البيت غير موجود ، وأن ربة البيت قد أعدَّتْ العجين ، وتريد مَنْ يخبزه فإذا مَرَّ أحدنا أخذه فخبزه ، ثم أعاد الطاولة إلى مكانها .

وفي قوله تعالى : ﴿ لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ .. (٢٣) ﴾ [القصص] إشارة إلى أن المرأة إذا اضطرتْ للخروج للعمل ، وتوفرتْ لها هذه الضرورة عليها أنْ تأخذَ الضرورة بقدرها ، فلا تختلط بالرجال ، وأنْ تعزل نفسها عن مزاحمتهم والاحتكاك بهم ، وليس معنى أن الضرورة أخرجتْ المرأة لتقوم بعمل الرجال أنها أصبحتْ مثلهم ، فتبيح لنفسها الاختلاط بهم .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ [القصص] فكان موسى - عليه السلام - طوال رحلته إلى مَدْين مسافراً بلا زاد حتى أجهده الجوع ، وأصابه الهزال حتى صار جِلْداً على عظم ، وأكل من بقل الأرض[1] ، وبعد أن سقى

(١) قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر وكان حافياً ، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع وإن خضرة البقل لتُرى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق تمرة . [تفسير ابن كثير ٣/٣٨٣] .

للمرأتين تولّى إلى ظلٍّ شجرة ليستريح ، وعندها لَهَج بهذا الدعاء ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص]

كأن الحق - سبحانه وتعالى - يريد من الضعيف أنْ يتجه إلى المعونة ، وحين يتجه إليها فلن يفعل هو ، إنما سيفعل الله له ؛ لذلك نلحظ أن موسى فى ندائه قال ﴿رَبِّ .. (٢٤)﴾ [القصص] واختار صفة الربوبية ، ولم يقُلْ يا الله ؛ لأن الألوهية تقتضى معبوداً ، له أوامر ونواه ، أمّا الرب فهو المتولّى للتربية والرعاية ، فقال : يا رب أنا عبدك ، وقد جئتَ بى إلى هذا الكون ، وأنا جائع أريد أن آكل .

ومعنى ﴿أَنزَلْتَ .. (٢٤)﴾ [القصص] أن الخير منك فى الحقيقة ، وإنْ جاءنى على يد عبد مثلى ؛ ذلك لأنك حين تُسلسل أىَّ خير فى الدنيا لا بُدَّ أن ينتهى إلى الله المنعم الأول ، وضربنا لذلك مثلاً برغيف العيش الذى تأكله ، بدايته نبتة لولا عناية الله ما نبتتْ .

لذلك يقولون فى (الحمد لله) صيغة العموم فى العموم ، حتى إنْ حمدتَ إنساناً على جميل أسداه إليك ، فأنت فى الحقيقة تحمد الله حيث ينتهى إليه كُلُّ جميل .

إذن : فحمْد الناس من باطن حمد الله ، والحمد بكل صوره وبكل توجهاته ، حتى ولو كانت الأسباب عائدة على الله تعالى ، حتى يقول بعضهم : لا تحمد الله حتى تحمد الناس(١) .

ذلك لأن أزِمّة الأمور بيده تعالى ، وإنْ جعل الأسباب فى أيدينا ، وهو سبحانه القادر وحده على تعطيل الأسباب ، وأذكر أن بعض

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٢٥٨) ، والترمذى فى سننه (١٩٥٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من لا يشكر الناس لا يشكر الله » قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

الدول (باكستان) أعلنت عن وفرة عندهم فى محصول القمح ، وأنها ستكفيهم وتفيض عنهم للتصدير ، وقبل أنْ ينضج المحصول أصابته جائحة فأهلكته . فاختلفت كل حساباتهم ، حتى استوردوا القمح فى هذا العام .

هذا معنى ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص] فالخير منك يا رب ، وإنْ سُقْته إليَّ على يد عبد من عبيدك ، وفقرى لا يكون إلا إليك ، وسؤالى لا يكون إلا لك .

ولم يكَدْ موسى - عليه السلام - ينتهى من مناجاته لربه حتى جاءه الفرج :

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ(١) قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٥) ﴾

قوله : ﴿إِحْدَاهُمَا .. (٢٥)﴾ [القصص] أى : إحدى المرأتين ﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ .. (٢٥)﴾ [القصص] يعني : : مُستحية فى مجيئها ، مُستحية فى مِشْيتها ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا .. (٢٥)﴾ [القصص]

لما جاءتْه هذه الدعوة لم يتردد فى قبولها ، وانتهز هذه الفرصة ،

(١) قال عمرو بن ميمون : لم تكن سلفعاً من النساء ، خراجة ولاجة . وقيل : جاءته ساترة وجهها بكُم درعها ، قاله عمر بن الخطاب . [تفسير القرطبى ٥١٥٧/٧] . والمرأة السلفع : السليطة الجريئة . والسلفعة : البذية الفحاشة القليلة الحياء . [لسان العرب - مادة : سلفع] .

فهو يعلم أنها استجابة سريعة من ربه حين دعاه ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص] وهى سبب من الأسباب يَمُدُّه الله له ، وما كان له أنْ يردَّ أسباب الله ، فلم يتأبَّ ، ولم يرفض دعوة الأب .

ولم يذكر لنا السياق هنا كيف سار موسى والفتاة إلى أبيها ، لكن يُرْوَى أنهما سارا فى وقت تهبُّ فيه الرياح من خلفها ، وكانت الفتاة فى الأمام لتدلّه على الطريق ، فلما ضمَّ الهواء ملابسها ، فوصفت عجيزتها ، قال لها : يا هذه ، سيرى خلفى ودُلِّينى على الطريق[1] .

وهذا أدب آخر من آداب النبوة .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ .. (٢٥)﴾ [القصص] أى : سيدنا شعيب عليه السلام ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ .. (٢٥)﴾ [القصص] أى : ما كان بينه وبين القبطى ﴿قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥)﴾ [القصص] يعنى : طمأنه وهدَّأ من رَوْعه .

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦)﴾

وهذا حكم رابع نستفيده من هذه الآيات ، نأخذه من قول الفتاة ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ .. (٢٦)﴾ [القصص]

وفى قولها دليل على أنها لم تعشق الخروج للعمل ، إنما تطلب مَنْ يقوم به بدلاً عنها ؛ لتقرَّ فى بيتها .

ثم تذكر البنت حيثيات هذا العرض الذى عرضته على أبيها ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦)﴾ [القصص] وهذان شرطان لابُدَّ

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٠٥) وعزاه للفريابى وابن أبى شيبة فى المصنف وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب .

منهما فى الأجير : قوة على العمل ، وأمانة فى الأداء . وقد تسأل : ومن أين عرفتْ البنت أنه قوى أمين ؟

قالوا : لأنه لما ذهب ليسقى لهما لم يزاحم الناس ، وإنما مال إلى ناحية أخرى وجد بها عُشْباً عرف أنه لا ينبت إلا عند ماء ، وفى هذا المكان أزاح حجراً كبيراً لا يقدر على إزاحته إلا عدة رجال ، ثم سقى لهما من تحت هذا الحجر ، وعرفتْ أنه أمين حينما رفض أن تسير أمامه ، حتى لا تظهر له مفاتن جسمها .

ويأتى دور الأب ، وما ينبغى له من الحزم فى مثل هذه المواقف ، فالرجل سيكون أجيراً عنده ، وفى بيته بنتان ، سيتردد عليهما ذهاباً وإياباً ، ليلَ نهار ، والحكمة تقتضى إيجاد علاقة شرعية لوجوده فى بيته ؛ لذلك رأى أن يُزوِّجه إحداهما ليخلقَ وَضْعاً ، يستريح فيه الجميع :

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ(1) عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ ﴾

فى الأمثال نقول : (اخطب لبنتك ولا تخطب لابنك) ذلك لأن

---

(1) تزوج موسى عليه السلام الصغرى منهما ، فعن أبى هريرة قال . قال ﷺ : « قال لى جبريل : يا محمد ، إن سألك اليهود أىّ الأجلين قضى موسى ؟ فقل : أوفاهما ، وإن سألوك أيهما تزوج ؟ فقل : الصغرى منهما » أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٤١٠) وعزاه لابن مردويه . وأورد نحوه أيضاً من حديث أبى ذر وعزاه للبزار وابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه بسند ضعيف .

كبرياء الأب يمنعه أنْ يعرض ابنته على شاب فيه كلُّ صفات الزوج الصالح - وإنْ كان القلة يفعلون ذلك - وهذه الحكمة من الأب في أمر زواج ابنته تحلُّ لنا إشكالات كثيرة ، فكثيراً ما نجد الشاب سوىًّ الدين ، سوىَّ الأخلاق ، لكن مركزه الاجتماعى - كما نقول - دون مستوى البنت وأهلها ، فيتهيب أنْ يتقدَّم لها فيُرفض .

وفي هذه الحالة على الأب أنْ يُجَرِّىء الشاب على التقدم ، وأن يُلمح له بالقبول إن تقدَّم لابنته ، كأن يقول له : لماذا لم تتزوج يا ولد حتى الآن ، وألف بنت تتمناك ؟ أو غير ذلك من عبارات التشجيع .

أما أن نرتقي إلى مستوى التصريح كسيدنا شعيب ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ .. ﴿٢٧﴾﴾ [القصص] فهذا شيء آخر ، وأدب عَالٍ من العارض ، ومن المعروض عليه ، وفي مجتمعاتنا كثير من الشباب والفتيات ينتظرون هذه الجرأة وهذا التشجيع من أولياء أمور البنات .

ألاَ ترى أن الله تعالى أباح لنا أن نُعرِّض بالزواج لمن تُوفِّي عنها زوجها ، قال تعالى : ﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ .. ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة] ولا تخفى علينا عبارات التلميح التي تلفت نظر المرأة للزواج .

وقوله : ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ .. ﴿٢٧﴾﴾ [القصص] أي : تكون أجيراً عندي ثماني سنوات ، وهذا مَهْر الفتاة ، أراد به أن يُغلي من قيمة ابنته ، حتى لا يقول زوجها : إنها رخيصة ، أو أن أباها رماها عليه .

﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن

شاءَ اللَّهُ منَ الصَّالحينَ (٢٧) ﴾ [القصص] يعنى : حينما تعايشنى ستجدنى طيبَ المعاملة ، وستعلم أنك مُوفّق فى هذا النسب ، بل وستزيد هذه المدة محبة فى البقاء معنا .

فأجاب موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾

أى : أنا بالخيار ، أقضى ثمانية ، أم عشرة ﴿ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾ [القصص]

وقد أخذ العلماء حُكْماً جديداً من هذه الآية ، وهو أن المطلوب عند عقد الزواج تسمية المهر ، ولا يشترط قبضه عند العقد ، فلَك أنْ تُؤجله كله وتجعله مُؤخّراً ، أو تُؤجل بعضه ، وتدفع بعضه .

والمهر ثمن بُضْع المرأة ، بحيث إذا ماتت ذهب إلى تركتها ، وإذا مات الزوج يُؤخَذ من تركته ، بدليل أن شعيباً عليه السلام استأجر موسى ثمانى أو عشر سنين ، وجعلها مهراً لابنته .

ونلحظ أن السياق هنا لم يذكر شيئاً عن الطعام ، مع أن موسى عليه السلام كان جائعاً ودعا ربه : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ [القصص]

لكن يروى أهل السير أن شعيباً عليه السلام قدّم لموسى طعاماً ، وطلب منه أن يأكل ، فقال : أستغفر الله ، يعنى : أنْ آكل من طعام كأنه مقابل ما سقى للبنتين الغنم ؛ لذلك قال : إنَّا أهل بيت لا نبيع عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً ، فقال شعيب : كُلْ ، فإنَّا أهل بيت

نطعم الطعام ونقرى الضيف ، قال : الآن نأكل[1]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ .. (٢٩) ﴾ [القصص] أى : الذى اتفق عليه مع شعيب عليه السلام ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ .. (٢٩) ﴾ [القصص] قلنا : إن الأهل تُطلق على الزوجة ، وفى لغتنا العامية نقول : معى أهلى أو الجماعة ونقصد الزوجة ؛ ذلك لأن الزوجة تقضى لزوجها من المصالح ما لا يقدر عليه إلا جماعة ، بل وتزيد على الجماعة بشىء خاص لا يؤديه عنها غيرها ، وهو مسألة المعاشرة ؛ لذلك حلَّتْ محلَّ جماعة .

ومعنى ﴿ آنَسَ .. (٢٩) ﴾ [القصص] يعنى : أبصر ورأى أو أحسَّ بشىء من الأُنْس ، ﴿ الطُّورِ .. (٢٩) ﴾ [القصص] اسم الجبل ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا .. (٢٩) ﴾ [القصص] انتظروا ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. (٢٩) ﴾ [القصص] يخبرها بوجود النار ، وهذا يعنى أنها لم تَرَها كما رآها هو .

وهذا دليل على أنها ليست ناراً مادية يُوقدها بشر ، وإلا لاستوى أهله معه فى رؤيتها ، فهذا - إذن - أمر خاص به ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. (٢٩) ﴾ [القصص] يعنى : رجاءَ أنْ أجد مَنْ يخبرنا عن الطريق ، ويهدينا إلى أين نتوجه ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) ﴾ [القصص]

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٠٧) عن أبى حازم وعزاه لابن عساكر . بنحوه .

﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) ﴾ [القصص]

الجذوة : قطعة من نار متوهجة ليس لها لَهَب ، ومعنى تصطلون أى : تستدفئون بها ، وفى موضع آخر قال ﴿ بِشِهَابٍ قَبَسٍ .. (٧) ﴾ [النمل] يعنى : شعلة لها لسان ولهب ، فمأربهم - إذن - على هذه الحال أمران : مَنْ يخبرهم بالطريق حيث تاهَتْ بهم الخُطَى فى مكان لا يعرفونه ، ثم جذوة نار يستدفئون بها من البرد .

وفى موضع آخر[1] لهذه القصة لم يذكر قوله تعالى : ﴿ امْكُثُوا .. (٢٩) ﴾ [القصص] وهذا من المآخذ التى يأخذها السطحيون على أسلوب القرآن ، لكن بتأمل الموقف نرى أنه أخذ صورة المحاورة بين موسى وأهله .

فزوجة وزوجها ضَمَّهما الظلام فى مكان موحش ، لا يعرفون به شيئاً ، ولا يهتدون إلى طريق ، والجو شديد البرودة ، فمن الطبيعى حين يقول لها : إنى رأيت ناراً سأذهب لأقتبس منها أن تقول له : كيف تتركنى وحدى فى هذا المكان ؟ فربما تضلّ أنت أو أضلّ أنا ، فيقول لها ﴿ امْكُثُوا .. (٢٩) ﴾ [القصص] إذن : لابُدَّ أن هذه العبارة تكررتْ على صيغتين كما حكاها القرآن الكريم .

كذلك فى : ﴿ سَآتِيكُم .. (٧) ﴾ [النمل] وفى مرة أخرى ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم .. (٢٩) ﴾ [القصص] قالوا : لأنه لما رأى النار قال ﴿ سَآتِيكُم .. (٧) ﴾ [النمل] على وجه اليقين ، لكن لما راجع نفسه ، فربما طفئت قبل أن يصل إليها استدرك ، فقال ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم .. (٢٩) ﴾ [القصص] على سبيل رجاء غير المتيقن .

---

(١) وذلك فى سورة النمل . قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) ﴾ [النمل]

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أنْ يعطينا خريطة تفصيلية للمكان ، فهناك مَنْ قال : من جانب الطور ، والجانب الأيمن من الطور . وهنا: ﴿ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [القصص]

ومضمون النداء : ﴿ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القصص] سمع موسى هذا النداء يأتيه من كل نواحيه ، وينساب فى كل اتجاه ؛ لأن الله تعالى لا تحيزه جهة ؛ لذلك لا تقُلْ : من أين يأتى الصوت ؟ وليس له إلْفٌ بأن يخاطبه الرب ـ تبارك وتعالى .

ومع النداء يرى النار تشتعل فى فرع من الشجرة ، النار تزداد اشتعالاً ، والشجرة تزداد خضرة ، فلا النار تحرق الشجرة بحرارتها ، ولا الشجرة تُطفىء النار برطوبتها(١) . فهى ـ إذن ـ مسألة عجيبة يحَارُ فيها الفكر ، فهل يستقبل كُلَّ هذه العجائب بسهولة أم لا بُدَّ له من مراجعة ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى بكر الثقفى قال : أتى موسى عليه السلام الشجرة ليلاً وهى خضراء والنار تتردد فيها ، فذهب يتناول النار فمالت عنه فذعر وفزع .. (أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٤١٣) .

وفى موضع آخر يسأله ربه ليُؤنسه : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ (١٧) ﴾ [طه] وقُلْنا : إن موسى ـ عليه السلام ـ أطال فى هذا الموقف ليطيل مُدَّة الأُنْس بربه ، فلما أحسَّ أنه أسرف وأطال قال : ﴿ وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه] فأطنب أولاً ليزداد أُنْسه بربه ، ثم أوجز ليظل أدبه مع ربه .

أما هنا فيأتى الأمر مباشرة ليُوظِّف العصا : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ .. (٣١) ﴾ [القصص]

وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ .. (٣١) ﴾ [القصص] لأنه رأى عجيبة أخرى أعجب مما سبق فلو سلَّمنا باشتعال النار فى خُضْرة الشجرة ، فكيف نُسلِّم بانقلاب العصا جاناً يسعى ويتحرك ؟

وكان من الممكن أنْ تنقلبَ العصا الجافة إلى شجرة خضراء من جنس العصا ، وتكون أيضاً معجزة ، أما أنْ تتحول إلى جنس آخر ، وتتعدَّى النباتية إلى الحيوانية والحيوانية المتحركة المخيفة ، فهذا شىء عجيب غير مألوف .

وهنا كلام محذوف ؛ لأن القرآن الكريم مبنىٌّ على الإيجاز ، فالتقدير : فألقى موسى عصاه ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا .. (٣١) ﴾ [القصص] ذلك ليترك للعقل فرصة الاستنباط ، ويُحرِّك الذِّهْن لمتابعة الأحداث .

والجانُّ : قُلْنا هو فرخ الحية ، وقد صُوِّرَتْ العصا فى هذه القصة بأنها : جانٌّ ، وثعبان ، وحية . وهى صور ثلاثة للشىء الواحد ، فهى فى خِفَّتها جانٌّ ، وفى طولها ثعبان ، وفى غِلَظها حية .

ومعنى ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا .. (٣١) ﴾ [القصص] يعنى : انصرف خائفاً ،

﴿ولَمْ يُعَقِّبْ ..(٣١)﴾ [القصص] لم يلتفت إلى الوراء ، فناداه ربه : ﴿يَـٰمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ .. (٣١)﴾ [القصص] يعنى : ارجع ولا تخَفْ من شيء ، ثم يعطيه القضية التى يجب أن تصاحبه فى كل تحركاته فى دعوته ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١)﴾ [القصص] فلم يقل ارجع فسوف أؤمنك فى هذا الموقف إنما ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١)﴾ [القصص]

يعنى : هى قضية مستمرة ملازمة لك ؛ لأنك فى مَعيّة الله ، ومَنْ كان فى معية الله لا يخاف ، وإلا لو خِفْتَ الآن ، فماذا ستفعل أمام فرعون ؟

وهكذا يعطى الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لموسى ـ عليه السلام ـ دُرْبة معه سبحانه ، ودُرْبة حتى يواجه فرعون وسَحرته والملأ جميعاً دون خوف ولا وَجَل ، وليكون على ثقة من نصر الله وتأييده فى جولته الأخيرة أمام فرعون .

وقد انتفع موسى ـ عليه السلام ـ بكل هذه المواقف ، وتعلَّم من هذه العجائب التى رآها فزادتْه ثقةً وثباتاً ؛ لذلك لما كاد فرعون أنْ يلحقَ بجنوده موسى وقومه ، وقالوا : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء] استعاد موسى عليه السلام قضية ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١)﴾ [القصص] فقال بملء فيه : ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

فحيثية الثقة عند موسى ـ عليه السلام ـ هى معيّة الله له ، قالها موسى ، ويمكن أنْ تكذب فى وقتها حالاً ، فهاهم البحر من أمامهم ، وفرعون من خلفهم ، لكنها ثقة مَنْ أمَّنه الله ، وجعله فى معيَّته وحفْظه .

وهذا الأمن قد كفله الله تعالى لجميع أنبيائه ورسله ، فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

وقال : ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّى لا يَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) ﴾[النمل]

وقـد قُصَّ هذا كله على نبـينا محـمـد ﷺ ، فانتـفع به ووثق فى نصـر الله ، فلمـا قال لـه الصِّديق وهـما فى الغـار : يا رسـول الله ، لو نظر أحـدهم تحت قدميْـه لرآنَا ، قال ﷺ : « يا أبا بكـر ، ما ظنُّك باثنين ، الله ثالثهما »(١) .

وحكى القرآن قوله ﷺ لصاحبه : ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا .. (٤٠) ﴾ [التـوبة] ومـا دُمْنا فى مـعـيَّـة مَنْ لا تدركـه الأبصـار ، فـلن تدركنا الأبصار .

ثم ينقل الحق ـ تبـارك ـ وتعالى ـ مـوسى عليه السـلام إلى آية أخرى تضاف إلى معجزاته :

﴿ اَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَاَضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ (٣٢) ﴾

معنى ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ ..(٣٢) ﴾ [القصص] يعنى : أدخلها ﴿ فِى جَيْبِكَ .. (٣٢) ﴾ [القصص] الجيب : فتـحة الثوب من أعلى ، وسَمَّوْها جَـيْباً ؛ لأنهم كانوا يجعلون الجيوب مكان حفْظ الأموال فى داخل الثياب حتى لا تُسرق ، فكان الواحد يُدخِل يده فى قبَّة الثوب لتصل إلى جيبه .

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحـيحه (٤٦٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه .